بقلم: وليد فرح
www.esoteric-lebanon.org

بين الحرية والاستقلالية
مسؤولية وعي

الحرية.. تلك الكلمة العميقة المعنى والمدلول. ذلك المطلب الدائم عند كل الشعوب وغالبية البشر. ذلك الهدف الذي نسعى إليه بكل جهد ومجهود. هذا الشعار الذي رفعته الشعوب لتغطّية حروبها فشوهت حقيقتها. إنها الحرية التي تغنّى بها الشعراء فنظموا فيها الآلاف من القصائد من دون أن يَفوها حقها. رفعت رايتها جميع الدساتير ونصّت القوانين لحمايتها وتَنظيمها. لكن هل وصلوا أو توصّلوا إلى حقيقتها الجوهر؟

تساؤلات كثيرة تدور حول الحرية.. فما هي الحرية؟ ما حقيقتها؟ وإلى أين قد تصل أبعادها أو منتهاها؟!

هل للحرية كمال نصل إليه فتُصبح حرية مطلقة؟!

ما الذي ينظم عمل الحرية لدى الإنسان وكيف يعرف حدود حريته؟!

هل القوانين والدساتير تكفي لتحديد عمل الحرية أم أن هناك أهم من تلك القوانين والدساتير والأنظمة التي سنّها البشر لتنظيم عمل الحرية؟!

إن الحرية الحقة كما تعرّفها علوم الإيزوتيريك لا تؤخذ أو تعطى، لا تُرى أو تُلمس. الحرية هي الحياة. هي شعور الحياة الذي ينبض في كل فؤاد.. هي هنيهات السعادة التي يحياها كل إنسان. فالحرية حال وليست هدفاً بحد ذاته. هي شعورالإنسان بحريته الفردية التي لم تفارقه يوماً.. وإلا كيف يطالب الإنسان بما لا يشعر أو يؤمن به؟

أوليست خطوات الطفل الأولى دعوةً صارخة نابعة عن رغبة الطفل في حرية أوسع وأشمل ورغبةً منه بالحصول على الاستقلالية؟ فبقدر ما يجهد الطفل ويسعى لتثبيت خطواته على الأرض تبدأ أولى خطواته نحو الحرية. والغريب في الأمر أنه حين يكبر الطفل ويبدأ باللهو واللعب يتنامى ذلك الشعور فيبدأ في البحث والاختبار من دون ملل أو تذمر، يتطلع إلى البعيد ويسعى للوصول إليه آخذاً من السقوط عبرةً تُعلمه المسؤولية وتزيده وعياً فتتسارع خطواته في المستقبل.

أما الأغرب من هذا كله فهو حين يصل الطفل إلى مرحلة الرشد، يتناسى الأسُس التي بنى حريته الأولى على مداميكها بنفسه فيبدأ بالمطالبة بها والسعي إليها وكأنه قد افتقدها.

لكن السؤال الذي يخطر في البال. هل من طريق للوصول إلى الحرية وما هي الوسائل التي على الإنسان إتباعها؟!

لذا سألتُ نفسي ما هي الحرية وكيف نعمل إلى فهمها وإدراكها حتى نستطيع رسم الطريق التي توصلنا إليها؟

نكرر القول، الحرية هي حال وليست هدفاً بحد ذاته. هي تلك الحال التي لم تُفارق الإنسان طوال حيواته على الأرض إنما جهل الإنسان لنفسه ولحقيقتها جعله يطالب بما هو أصلاً لديه.

تؤكد علوم الإيزوتيريك أن الفكر أساس كل شيء في حياة الإنسان.. وهوأساس حالة الإنسان الجسدية، والصحية، والنفسية، والعقلية! من هذا المنطلق تكمن الانطلاقة لفهم الحرية ضمن نطاق الفكر أولاً، فالحرية الفكرية تبني الشخصية الفردية، طبعاً إذا طبق المرء أفكاره في الحياة العملية. أما الفكر المقصود به فهو الفكر المنظم والموجّه الذي يضفي الهدوء على المشاعر وراحةً ونشاطاً على الجسد وليس الفكر الثوري غير المنظم والذي إن حصل على الحرية فهو سرعان ما يستهلك نعمتها في أفكارٍ وتصرفاتٍ قد تذمّر منها في يومٍ من الأيام..

إن الحرية الفكرية الواعية تُنتج استقلالية فكرية هادفة ومسؤولية عملية واضحة والتي بدورها توصل إلى نتائج صحية ارتقائية...

الاستقلالية.. والمسؤولية.. والوعي.. ركائز أساسية لاكتساب الحرية الحقة..

فمن دون استقلالية فكرية ومادية تصبح حريتنا انعكاساً لمطالب الآخرين.. ومن دون حس المسؤولية تصبح الحرية عشوائية.. ومن دون الوعي لا معنى للحرية أصلاً!!

إن الحرية في المفهوم الشعبي غالباً ما تكون وهمًا وزيفًا، يسعون وراءه ظناً منهم أن الوصول إليه يعني غياب القيود والأنظمة. فالحرية الحقة هي الوعي ولا شيء سوى الوعي. ففي غياب الوعي تصبح الحرية جهلاً، وفي غياب المسؤولية تصبح الحرية فوضى وشتان بين الحرية المبنية على أسس الوعي والمسؤولية وتلك المستندة على الجهل والفوضى والاتكالية.

يوضح الإيزوتيريك أن شعوب الأرض تتوق إلى الاستقلال، تسعى إليه وتريق الدماء في سبيله. حروب تخاض وأمم تتقاتل لأجله. لكن ما أبعدهم جميعاً عنه!

الحرية الواعية لا تنال بالحروب والقتال.. بل المطالبون بها يزيدون في عبوديتهم عمقاً وثباتاً! فالاستقلال الحق هو حرية الوعي! وهل هذه الحرية تُراق بالدم؟!

الحرية حين تثور لا تثور دماراً وغطرسةً وسفك دماء.

ثورة الحرية ثورة علم، وفهم وإدراك.. ثورتها ثورة فن ومحبة، ثورتها ثوَرة وعيٍ. فالحرية في منتهى أمرها ثورة الوعي على اللاوعي.

بكل بساطة الحرية إيديولوجية الوعي!!